تطوّر فكرة الاشتراكية

بقلم فؤاد طرزي

للاشتراكية مئات من التعريفات ، والاشتراكيون يعدّون بمئات الألوف؛ ولكن من الضروري ان نعرف ان الاشتراكية لا تعدو أن تكون نقداً لفكرة الملكية من وجهة المصلحة العامة .

ان أصول فكرة الملكية ترجع الى الغرائز الشرسة في الانواع الحيوانية . وقبل ان يكون الانسان إنساناً من زمن طويل ، كان جدنا القرد مالكاً . والملكية في شكلها الاول هي ما يدافع عنه الحيوان ، وتتمثل في قصة الكلب والعظم ، والنمر والعرين ، وزئير الذئب والقطيع . فهذه كلها أصول للملكية . والواقع انه ليس هناك اصطلاح لا معنى له قيل في علم النفس كاصطلاح « الشيوعية البدائية » لان الانسان القبلي القديم وانسان العصور الحجرية الاولى كان يتمسك بحق الملكية بالنسبة لزوجاته وبناته وادواته ومكانه الذي يحيط به . فاذا ما اعتدى شخص آخر على هذا المكان الذي اتخذه مسكناً ، فانه يقاتله واذا استطاع ذبحه . ولقد نما نظام القبيلة خلال العصور وأثبت « اتكنسن » في كتابه « القانون الادبي » ان هذا النظام نما بعد ان تطورت في نفس الرجل القديم نزعة التساهل في الابقاء على الرجال الذين يصغرونه في السن وفي حقه في زوجاته اللاتي يسلبهن من القبائل الاخرى وفي عُدده وحليه التي يصنعها وصيده الذي يقنصه . ان المجتمع البشري نما بتعاون أصحاب الملكيات فيما بينهم ، وان هذا التعاون فرض نفسه على الانسان بظهور الحاجة الى التكاتف لدفع اعتداءات القبائل الاخرى على مكانه الذي يسكنه . فاذا لم تكن الغابات والتلال والجداول ملكك وملكي فذلك لانها ملكنا جميعاً . وكل إنسان يفضل ان يقول « ان هذا ملكي » ولكن ليس هذا هو العمل المنظم لان الآخرين في هذه الحالة سيدمروننا . ولذلك فان المجتمع منذ ان وُجد ، عمل على التخفيف من الشعور بحق التملك . وان غريزة التملك في الحيوان وفي الانسان المفترس أشد منها في الانسان المتمدين ، ولهذا فاننا نجد جذورها في عواطفنا لا في عقولنا .

ولم يقم في عصر الانسان المتوحش ولا في عصر الانسان المتمدين اليوم اي تحديد للملكية ، فكل ما تستطيع الدفاع عنه فهو ملكك . ولكن كلما نما المجتمع نمت معه انواع من القوانين التي كانت تمنع القتال الشرس ، واندفع الانسان اكثر فأكثر لاستصناع وسائل أوفر فعالية لاثبات ملكيته . وكان الناس سابقاً يستطيعون ان يتملكوا كل ما يستطيعون صنعه او القبض عليه او الادعاء به ، ومن الطبيعي انه في مثل هذا الوضع يصبح المدين الذي لا يقدر على الدفع ملكاً للدائن . وكان من الواضح انه بعد ان أخذ الانسان يدعي ملكية رقعة من الارض صار كل واحد يعطي القروض لاي إنسان غيره يريد ان يستفيد منها ويستخدمها . ولكن فكرة الملكية التي لا تخضع لقيد ولا حد أخذت تتغير ببطء ككل التغيرات التي طرأت على أنظمة الحياة التي يخضع لها الانسان . لقد وجد الناس أنفسهم يولدون في أرض يملكونها جميعاً ويدّعونها كلهم ولم يجدوا أنفسهم يولدون وهم يملكون لانفسهم ويطلق عليهم اسم المالكين . ولما كانت الانقلابات الاجتماعية في المدنيات القديمة معقدة ومتشابكة ، فانه من الصعب تتبع آثارها الآن ، ولكن تاريخ الجمهورية الرومانية يرينا ان المجتمع قد استيقظ على فكرة ان الديون شيء مزعج للجمهور ولذلك يجب ان تلغى وان عدم تحديد ملكية الارض غير مقبول أيضاً . ونحن نعرف كذلك ان البابليين المتأخرين حددوا بكل صرامة تلك الحقوق التي كانت للاسياد على العبيد بموجب فكرة الملكية . واخيراً فاننا نجد في تعاليم الثائر الكبير السيد المسيح مثل هذا الهجوم على الملكية بشكل لم يعرف من قبل فهو يقول : « ان دخول الجمل في سمّ الابرة أسهل من دخول صاحب الاملاك الى مملكة السماء ! » .

ثم توالت الهجمات بانتظام على فكرة الملكية الكبيرة في الخمسة والعشرين والثلاثين قرناً الأخيرة . وبعد المسيح بـ ١٩٠٠ سنة نجد جميعاً بان العالم يشهد حركة كبيرة لتحطيم اسس فكرة

الملكية في الحياة البشرية واخذت الفكرة الشائعة بان «الانسان يستطيع ان يتصرف في ملكه كيفما يشاء» تعاني هزة كبيرة بنفس القوة التي عانتها جميع انواع الملكية . إلا ان هذا العالم الذي وجد في ختام القرن التاسع عشر وقف موقف المتسائل من هذه القضية ، فلم يقدم شيئاً كافياً او يقر فكرة واضحة لاثبات المشكلة . فقد كان من اول اهدافه حماية الملكية من جشع الملوك المستبدين واستغلال النبلاء المجازفين ، واولى في نفس الوقت عناية كبيرة لحماية الملكية الخاصة من الضرائب التي فرضتها الثورة الفرنسية ، غير ان دستور هذه الثورة الاخيرة الذي أقر المساواة حملها الى الملكيات الكبيرة التي اراد حمايتها . فكيف يمكن ان يصبح الناس احراراً متساوين وهناك العدد العديد منهم لا يملكون ارضاً يسكنونها ولا شيئاً يأكلونه وان المالكين لا يطعمونهم ولا يسكنونهم ما لم يكدوا ويتعبوا ؟!

مما لا شك فيه ان هذا الوضع قد دفع الفقراء الى الشكوى وكان من اولى النتائج السياسية ان ظهرت جماعة جديدة وقفت في صف واحد واخذت تطالب بتعميم الملكية ، وكانت تهدف من وراء غايتها — وبطريقة اخرى — الى نتيجة ثانية . فعرف الناس من سموا بالاشتراكيين المتطرفين او بعبارة اكثر تحديداً الشيوعيين الذين كانوا يرمون الى الغاء الملكية الخاصة الغاء نهائياً وتمليك الدولة كل المرافق العامة .

وكان من الامور المتناقضة ان نجد اناساً مختلفين يفتشون عن الحرية والسعادة وهما الغايتان اللتان يهدف اليهما غيرهم فيقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة بقدر الامكان ويدعون من ناحية اخرى الى تعيين هدف لجميع الملكيات . وإننا نجد تفسيراً لهذا التناقض في حقيقة ان الملكية ليست شيئاً واحداً بل هي أشياء مختلفة متباينة . وعندما تطورت الحياة في القرن التاسع عشر اخذ الناس يدركون ان الملكية ليست شيئاً بسيطاً بل شيء معقد تختلط فيه قيم مختلفة وآثار متنوعة . فهناك اشياء متعددة ، كجسم الانسان وأدوات الفنان والملابس ، تعتبر من الاملاك الشخصية الفردية التي لا يمكن سلبها . وان هناك أصنافاً كثيرة من الأشياء كالسكك الحديدية والآلات من مختلف الأنواع والبيوت والاراضي الزراعية وزوارق النزهة وأمثالها تحتاج الى ان يوضع لكل منها تصميم يبين الى أي مدى وتحت أية قيود تدار إذا اعتبرت ملكية خاصة ، وإلى أية درجة تدخل في عداد املاك الدولة العامة ؟ وكيف يمكن إدارتها واستغلالها من قبل الدولة لتحقيق المنفعة الاجتماعية ؟ وفي ميدان الحياة العملية أثرت هذه المشاكل في الافكار السياسية ، وتطرقت البحوث إلى قضية مقدار كفاءة الدولة في الادارة . وقد فتحت هذه القضايا السبيل لظهور قضايا اخرى تتعلق بالنفسية الاجتماعية واتجاهات علم التربية ويُعرف ان القوى التي تناوىء الملكية تعتمد إلى حد كبير على العواطف الثائرة لا على المنطق والعقل . فكان يقف في طرف الفرديون الذين يدعون الى حماية وتوسيع مدى حرياتنا المقررة بما نملكه ، ويقف في الطرف الآخر الاشتراكيون الذين يرمون على اختلاف نزعاتهم الى تقليل حقوقنا المنبعثة من تملكنا للاشياء . وفي ميدان العمل يجد الانسان دائماً اناساً معتدلين يقفون بين الفرديين المتطرفين الذين يسمحون نادراً بفرض الضرائب لمساعدة الدولة وبين الشيوعيين الذين ينكرون أية ملكية على الاطلاق .

ان الاشتراكي العادي اليوم — والذي يُدعى بالجماعي — يسمح ببقاء الملكية الخاصة على قدر معقول ولكنه يدعو الى ان تتملك السلطة العليا في الدولة كل المرافق العامة كالتعليم والنقل والمناجم والاراضي وتتولى انتاج القطع الكبيرة من الآلات الثابتة وما شابه ذلك .

ونحن نشاهد في هذه الايام تقدماً مطرداً واتجاهاً حثيثاً لدراسة الاشتراكية وتنظيمها وفق أسس علمية . فقد غدا مفهوماً أن الانسان الأول غير المتمدين لم يتعاون بسهولة ونجاح في المهام الاجتماعية الكبيرة ولهذا ظهر أن كل خطوة في سبيل بناء أسس دولة متشابكة المصالح ، وان كل طريقة تتبعها الدولة لوضع يدها على المشاريع الخاصة تحتاج الى نشر التعليم وتحسين توجيه الرقابة والادارة . كما ظهر ان الصحافة والاساليب الارسالية في الدولة الحديثة لا تزال بعيدة عن ان تتلاءم مع الانتاج الكبير في ميادين النشاط الاجتماعي . ولكن بعد مضي فترة من الزمن أدى التعارض الذي حصل بين مصلحة المستخدِم والمستخدَم — وعلى الأخص بين مصالح المستخدِمين الأنانيين

مصادر البحث

١ . حقوق الانسان	هارولد لاسكي
٢ . تاريخ العالم	ه . ج . ويلز
٣ . الاتجاه نحو نظام جديد	ه . ج . ويلز
٤ . التاريخ الانكليزي	مكولي
٥ . الطرق العلمية في الدراسات الاجتماعية	ولسن

ومصالح العمال الناقمين — الى انتشار صنف بدائي من أصناف الشيوعية في انحاء العالم وهو الصنف الذي اقترن باسم ماركس، ولقد بنى ماركس نظرياته على أساس الاعتقاد بان افكار الناس تتجدد وفق حاجاتهم الضرورية. وهكذا فان هناك مانعاً اصلياً في المدنيات الحديثة يمنع من تحقيق الرفاه للطبقات العاملة وللمجتمع بصورة عامة في آن واحد. ويقول الماركسيون انه بنتيجة التقدم الذي حصل في ميدان التعليم والذي جاء إثر الثورة الميكانيكية ستصبح الاغلبية الكبيرة من العمال طبقة واعية بالتدريج وستصبح اكثر عداء (ولا ننس انها طبقة واعية) للأقلية الحاكمة. وبطريقة معينة ستستولي هذه الطبقة العاملة الواعية على السلطة كما يتنبأ ماركس وتدشن عهد دولة اجتماعية جديدة.

وفي التعليق على هذه المبادىء والنظريات نقول ان العداء والعصيان والثورة المتوقعة أشياء مفهومة فهماً كافياً ولكن من الملاحظ انها لن تؤدي الى إقامة دولة اجتماعية جديدة او غير ذلك بل ستعقبها عملية هدم اجتماعي فحسب. لقد عمل ماركس على إحلال الخصام الدولي مكان الخصام الطبقي، ولذلك انتجت الماركسية على التوالي ثلاث دوليات عمالية. ولكن اذا نظرنا من النقطة التي ابتدأت منها فكرة الفردية الحديثة فمن الممكن ان نحصل ايضاً على نفس الافكار الدولية، فمنذ ايام الاقتصادي الكبير آدم سمث تعمل الاتجاهات العامة قدما على توجيه الأذهان نحو فكرة تقول بانه لا يمكن تحقيق الرفاه العالمي إلا بتعميم الحرية ورفع القيود التجارية، وبكراهية الفرديين للدولة كرهوا التعريفات الجمركية وعراقيل الحدود وكل التقييدات التي توضع للحد من الحرية في المعاملات وخاصموا الحركة التي كانت منتعشة لبقاء الحدود القومية. ومن الممتع ان نرى اتجاهين فكريين، متناقضين في روحهما، مختلفين في جوهرهما، بمثل تلك الدرجة من التناقض والاختلاف الموجودين بين مذهب الحرب الطبقية الاجتماعية الذي بشر به ماركس وبين الحرية التجارية التي دعا اليها الفرديون من فلاسفة رجال الاعمال البريطانيين في العصر الفيكتوري — نقول من الممتع أن نراهما بالرغم من هذه الاختلافات الاساسية يتلاقيان في النهاية في الدعوة الى غايات مشتركة ترمي إلى التعاون العالمي في مختلف الشؤون الانسانية بدون أي اعتبار للحدود والتحديدات التي يفترضها وجود الدولة. ولعل القياس في هذه المواضيع يجب ان يترك للانجازات والانتصارات الواقعية لا إلى المسائل النظرية. ولهذا فاننا اخذنا نحس رغم الاختلاف الواسع بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي بانهما قسم من اتجاه عام... اتجاه للبحث عن مجتمع أكثر رحابة وسعة، وعن آراء وتأويلات سياسية لاختيار السبل التي تجمع الناس للعمل مشتركين متعاونين. وقد ابتدأ هذا الاتجاه في اوربا في القرن التاسع عشر، وقواه إيمان الانسان بمثل الامبراطورية المقدسة، وحثه عليه انحلال المسيحية، ثم توسع أكثر وأكثر عندما بزغ عصر الاكتشافات الذي تطلع فيه الانسان إلى آفاق جديدة... آفاق تمتد إلى أبعد من شواطىء البحر الابيض المتوسط لتضم العالم الواسع باجمعه.

« بغداد » فؤاد طرزي المحامي

المعهد العالي للتعليم الليلي

التابع لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت

محلة القنطاري — تلفون: ٣٤-٦٤

المؤسسة الوحيدة التي تكفل لك دراسة المواد التجارية: مسك الدفاتر والمحاسبة والحسابات التجارية والمراسلات

باللغة العربية، بطريقة المراسلة

طريقة عملية فذة، رسوم معتدلة، تسهيلات في الدفع

تلاميذها منتشرون في العالم العربي والمهاجر الافريقية

اطلب برنامج الدراسة وكافة المعلومات والايضاحات ترسل اليك مجاناً

اقسام المعهد النظامية

الثانوي — الابتدائي — الانكليزي — التجارة والآلة الكاتبة — الكهرباء والراديو

التدريس كل يوم من الساعة ٦—٩ مساء